الفصل الرابع

غرائب الأسماك

الأسماك تبنى أعشاشها

obeikandl.com

obeikandl.com

قد يبدو غريبا أن توجد هنـــاك أسماك تبنى أعشاشـــها وتحرس بيضها وترعى صغارها • وان كان كثير من الطيور يفعل ذلك • ويحاول بعض العلماء أن يثبت أن الطيور قد تطورت عن الزواحف ، والزواحف نشأت عن الأسماك ، وقد تكون الطيور أخذت عادة بناء الأعشاش عن أسلافها الأسماك ولسنا بصدد تمحيص هذه النظرية وان كان يكفى للتشكيك فيها أن التماسيح هى الزواحف الوحيدة التى تبنى نوعا من الأعشاش أما بقية الزواحف فلا تفعل ومع ذلك فان التماسيح اذ تضع بيضها فى الأعشاش تغادرها بعد ذلك لتصاريف الأقدار •

وكما أن بعض الطيور تبنى أعشاشا جميلة ، وتتفنن فى انشائها ، نرى البعض الآخر يكتفى ببضعة أعشاب يلقيها حيثما اتفق ، أو يقنع بحفرة يوجدها بين أوراق الشجر الساقطة أو بين حصى الساحل • كذلك تختلف الأسماك فى بناء الأعشاش •

وأكثر الأسماك شيوعا فى بناء الأعشاش هـــو سمك (الروتش) الذى يعيش فى المياه العذبة ، واذا فحصنا قاع أية بركة أو بحيرة من التى يكثر فيها هذا السمك • لابد وأن نلتقى بأعشاشه • وهى فى ظاهرها ليس لها شكل الأعشاش ، فما هى الا منخفضات مستديرة قد نقيت من الحصى والأحجار ، ولها فى العادة سور صغير من الرمل والحصى الصغيرة (لحماية البقعة) • وكثيرا ما تكون مغطاة جيدا تحت حزمة من الأعشاب البحرية أو فى حمى الصخور وغيرها •

وقد يساعدك الحظ عندما تقترب من العش فترى هذه الســـمكة قابعة فى القاع عند منتصف هذا المنخفض المستدير • وهنا نلاحظ أن الذكر هو الذى يرقد فى العش ، ففى عالم الأسماك يقوم « الأب » برعاية الشئون المنزلية ، كما هو الحال فى الضفادع وغيرها من البرمائيات • وقد لا نرى البيض بالنظر فى الماء بالعين المجردة ، ولكنه يكون موجودا فى العش والأب يحتضنه ، وقد تقعـد مكانه الأم أحيـانا ، الى أن تخرج الصغار ثم تغادر العش •

وشبيه بهذا ما يصنعه سمك اللامبرى ولكنه بدلا من أن ينقى البقعة من الحصى الكثير ليبنى عشه . يجلب اليهـا حجارة كبيرة ، ويبنى قاعة حقيقية من الصخر يضع بداخلها بيضه • وطالما ظن كثير من الناس أن ثعبان اللامبرى هذا يأكل الأحجار ، لأنهم يرون أحجارا متوسطة الحجم بفمه الذى يشبه الخرطوم ، كما أن هذا السمك يلصق فمه الى حجـارة الساحل أو الى جذع شجرة . ومن هنا أخذ اسمه ، لأن كلمة (لامبرى) معناها « مصاص الحجارة » ••

وهنا أسماك أخرى تبنى أعشاشا قوية منتظمـــة من الحشائش وأعشاب البحر وتثبتها فى سيقان البوص النـــامى فى المنطقة • وأكثر هذه الأسماك شيوعا نوع صغير له أشواك حادة فى ظهره ، وهو يعيش فى البرك والقنوات والملاحات المجاورة للبحر ويشتهر فى جميع هذه الجهات بأعشاشه العجيبة •

فاحيانا تشيد هذه الأعشاش من الأغصان وصـــغار العصى يثبت بعضها فى بعض بمادة صمغية تفرزها السمكة نفسها ، وأحيانا تتكون الأعشاش من قطع الحشائش تصمغ بالطريقة نفسها •

وبصرف النظر عن المواد المستعملة فى بناء الأعشاش ، فانها دائما تثبت بقوة الى أعواد الغاب والنباتات المائية القوية أو تلصق بين الأحجار ، وهى أعشاش تكاد تكون فى شكل كروى وأحيانا يكون فى منتصفها فتحة تمتد من جانب الى جانبها الآخر ، وفى هذه الفتحة يوضع البيض ، ويقوم الذكر بحراستها ، فتظل الأنثى نائمة ورأسها بارز فى أحـد جانبى العش وذنبها بارز من الجانب الآخر . وتحرك زعانفها على شكل مروحة باستمرار لتجلب الى البيض ماء جديدا محملا بالاوكسجين وبين وقت وآخر يغير الأب وضعه وقد يغادر العش لمدة قصيرة سعيا وراء الغذاء كما سبق أن ذكرنا . ولكنه لا يبتعد عن مرمى النظر من العش • كما أنه لا يخاطر ولا يترك سبيلا للمصادفة ، فبمجرد أن يرى سمكة أخرى أو حيـوانا يقترب ، يندفع نحوه فى عنف وقد انتفض الشوك على ظهره ، ولا يهدأ حتى يطرد ذلك الدخيل ولو كان أكبر منه • ويظل هذا الأب قائما بالحراسة لمدة شهر قد يطول أو يقصر حتى يخرج آخر الصغار . ثم يتولى حراسة ذريته كما تفعل الدجاجة مع أفراخها ، ويقـــودها باحثا وراء الطعام ، ويجمعها فى سرب واحد ، حتى اذا انفلت أحـــدها بعيدا يمسكه بفمه ويعيده الى الصفوف • ويظل يرعاها حتى تصبح قادرة على رعاية نفسها •

ونوع آخر من السمك يبنى عشا عجيبا ، ذلك هو الجورامى أو السمك ذو الفقاقيع ، وهو سمك صغير ملون ، قد يكون اللون الأصفر والأحمر القاتم ، وقد يكون به نقط وشرائط زرقاء ، ويتميز بسهولة بما تحت ذقنه من خيوط طويلة رفيعة ٠

عندما يشعر الجورامى الأب بحافز الى تكوين أسرة ، يشرع فى بناء عشه للذرية القادمة ، فيرتفع الى سطح الماء ، ويأخذ نفسا من الهواء ثم يبتدىء فى اخراجه فقاعات ٠ ولكنهـــا ليست فقاعات عادية ، لأن كل واحدة منها مكسوة بمخاط صمغى ، وعندما ترتفع الى سطح الماء تلتصق احداها بالأخرى التصاقا متينا بحيث تكون ما يشبه عوامة لطيفة مكونة من عدد لا يحصى من القوارب المائية الصغيرة ٠ وبعض هذه الأسماك تقوى هذه الأعشاش العائمة باضافة قطع من الأعشاب البحرية الى بنيانها ، وبعضها يثبت هذه الاعشاش الى الغاب المائى أو الأجسام الثابتة فى المـاء ٠

وعندما يتم بناء هذا العش العجيب يقود الذكر أنثاه الى ما تحت هذه الحميلة ويلصق بيضها الى السطح الداخلى للعش العائم ٠ ومن الغريب أنه بمجرد أن يثبت البيض فى مكانه ، يفقد الذكر كل اهتمام بالأنثى ، ولا يجد لها أية فائدة فيطردها ، واذا أصرت على البقاء بمقربة منه يضربها بلا رحمة ، حتى يتخلص منها ٠ ثم يظل مثابرا على مراقبة العش والبيض ، ويلاحظ باستمرار اصلاح الصدوع التى تصيب العوامة بأن يضيف اليها فقاقيع جديدة حتى تفقس البيض كله ٠ وبعدئذ يحصل تغير عجيب فى هذا الأب الرءوم لعله يدرك بغتة أن أسرته لا أم لها أو يشعر بالمسئوليات الخطيرة التى ألقاها على نفسه فهو يحرس البيض لمجرد اعداد غذاء لنفسه ، وعلى كل حال فانه بدلا من أن يرعى صغاره ويحميهم من الغير يبدأ فى أكلها هو نفسه ، والقليل الذى ينجو فارا من مخالبه ، هو الذى يبقى ليعيش ويعامل صغاره نفس معاملة أبيه له ويحيى تقاليد هذا السمك ذى الفقاعات ٠

وكثير من الأسماك لا تبنى أعشاشا منظمة ، ولكنها تحرس صغارها وترعاها كما يفعل السمك ذو الأشواك الظهرية الحادة الذى تحدثنا عنه ، وأهم هذه الأسماك نوع يوجد فى شمال الأطلسى يسمى « ماص الكتل » فان الأنثى تضع البيض الأحمر الجميل فى فجوة أو كسر فى الصخور ويتولى الأب حراسة البيض ورعايته ويجلس فوقه تقريبا ، ولا يغادره الا لفترات قصيرة حيث يصعد الى سطح الماء للحصول على كمية من الهواء يعود بها ويرسلها فقاقيع بين البيض لتزويده بالأوكسجين اللازم ٠

وهناك أسماك أخرى تتبع طرقا أعجب من ذلك وتختلف عما تقدم فى حماية البيض ورعاية الذرية الصغار . ففى المناطق الحارة سمك معروف يحمل البيض فى فمه الى أن يفرخ ثم يرعى الصغار ويلاحظها ، حتى اذا استشعرت أول بادرة خطر تهرع الى فم الأب فى طلب السلامة والأمن (كأسماك البلطى) .

وهناك سمكة فى غينيا الجديدة تفوق كل هؤلاء فى طريقة العناية بالبيض . فسمك الكورتوس يوجد عشه فوق رأسه . فوق أنف الذكر – فى جبهته اذا صح هذا التعبير – توجد فجوة عميقة لها باب يفتح ويغلق ، ويتكون منها عش صغير يوضع فيه البيض الذى يبلغ مائة بيضة أو أكثر الى أن يفقس ولا يسعنا هنا الا أن نذكر أنه اذا كانت الأسماك لا تصل الى بناء أعشاش الطيور ، فانه لا يوجد طائر واحد يستطيع أن يفخر بأن له عشا فوق رأسه .

يقول الصيادون أن السمك قادر على أن يدرك وجود انسان على مقربة منه ، وعلى ان يرى من الماء ويميز الألوان ، ويذهبون الى أبعد من ذلك فيقررون أن السمك يدرك درجة مهارة الصياد .

أما مسألة سمع السمك فقد كانت موضع بحث ومناقشة وكثيرا ما تساءل الباحثون هل السمك يسمع الصياد وهو يدب على الشاطىء ؟ أو يسمع السفينة على سطح الماء وهل يميز السمك صوت الانسان ؟ .

وقد كان لهذا الموضوع ضجة خاصة فى روسيا قبل الحرب العالمية الأولى ، فقد قامت شركتان كبيرتان للصيد وطالبتا أمام القضاء بمنع احدى الشركات الملاحية من تسيير بواخرها بأحد الأنهار الكبيرة بدعوى أن صوت المحركات يزعج الأسماك ويشتتها . وقد خسر جانب الصيد القضية فى الدرجة الأولى اذ قررت المحكمة أن السمك ليس له آذان ولا يسمع شيئا فاستأنفت القضية وظلت عدة سنوات ثم رفعت الى قضاء أعلى ، ولكن المسألة صرف النظر عنها بقيام الحرب الكبرى .

ولكن فى خلال انتظار القضية أمام المحاكم كان الفنيون يجرون أبحاثهم فى المعامل .

فقام زونديك العالم الألمانى بالتبشير بأن الأسماك تسمع ، وعلمها أن تعوم اليه عندما يقف على مرتفع فى بركة ويرن جرسا . وفعلا كان اذا رن الجرس حضرت الأسماك لتتناول طعامها ولكن هذا لم يقم دليلا على أن السمك قد سمعه ، فقد يكون رآه فقط .

واختار باحث آخر لتجاربه نوعا خاصا من السمك يسمح له تركيب خيشومه أن يعيش مدة من الزمن بدون ماء · فعندما يجيء وقت الجزر كانت هذه الأسماك تظل على اليابسة · فزحف الباحث الى أحدها بهدوء ، ورن جرسا فوق رأسها ، فلم يبد على السمكة ما يدل على أنها سمعته فأخذ الباحث فى الصياح والتهليل ، فلم تتحرك السمكة ، فأخرج مسدسا وأطلق منه النار ، لم تعبأ أيضا ، فاستنتج الباحث من ذلك أن السمك لا يسمع ·

وكان للعالم الأمريكى تجاربه بدوره · وقد بدأ بملاحظة الخطوط الظهرية فى جسم السمك ، وهى التى توجه السمك من حيث الاتجاه الذى يجرى فيه الماء ، فان حركة الماء تحت السمكة تهيج مجموعة من الأعصاب المستقبلة تقع فى خطوط طويلة تحت الجلد السميك ، وبها يشعر السمك بأقل حركة فى الماء ، واذا استؤصل العصب الذى يربط هذه النقط المستقبلة ، فان السمكة تصبح غير قادرة على معرفة اتجاه التيار · ولكن السمك له عضو آخر هو الخط المتموج المعقد الذى يعبر جانب الرأس وأعلى الخياشيم ، فهذا الخط يتصل بالمخ بأعصاب فى وضع يشابه أعصاب السمع فى الحيوانات العليا التى تعيش فى الهواء الطلق ·

ولذا فقد ظن أن السمكة ليست فقط تشعر بحركة الماء . بل تحس أيضا التذبذبات التى تحدثها الأمواج الصوتية · فالسمك ليس به جهاز سمعى كامل التكوين كالحيوانات التى تعيش فى الهواء ، ولكن يلوح أن له عضوا بدائيا يقع على طول سطح أجسامه · وبذلك أصبحت مشكلة سمع الأسماك ليست مستعصية الحل ، بل الأمر كله يتحدد فى احساسه بتذبذبات الصوت فى الماء ·

واننا لنذكر هنا شيئا عن تجربة طريفة أجريت للحسم فى هذا الموضوع والتأكد من أن هناك صلة بين صوت دق الجرس مثلا وبين الحركة التى يأتيها السمك نتيجة لذلك ·

وقد استعمل فى ذلك حوض مائى ، وركب عليه جهاز وضعت به سماعة (تليفون) ، وعلقت به سمكة بخيط يسمح بتمرير تيار كهربائى به وطبيعى أن هدف السمك فى الحركة لا يخرج عن أحد أمرين اما السعى وراء الطعام واما اتقاء الخطر الذى يحيق به ، وهذان الدافعان يتميزان فى تكوين السمكة وفى جهازها العصبى بصفة خاصة · وقد وجد فعلا أن التيار الكهربى اذ يمر فى الخيط المعلق به السمكة ، يجعلها

تاتى بحركات عنيفة وتغوص مبتعدة · وعندما ينقطع التيـــار تعود الى هدوئها ·

وقد اتضح فى قضايا التجارب أن السمك يستجيب للصوت عنـد أول وهلة فقط ، فاذا استمر الصوت تعود عليه ولم يعد يكترث به بل ولا يبدو عليه أنه يسمعه · واذن فلا يكفى فى التجربة احداث صوت فى الجو أو حتى فى داخل الحوض ، بل يجب أن يكون لهـذا مغزى خاصا لدى السمك ، بأن يكون له أثر طيب أو أثر ردىء ·

ولهذا فان التجربة اتجهت الى احداث صوت (بالتليفون) وشفعه بعد ذلك بموجة كهربية حتى يرتبط الصوت بالخطر ، فوجد بعد جملة مرات أن السمك وقد أدرك أن لصوت (التليفون) مغزى خاصا لكيانه ، وهو الخطر الذى يصحبه ، أخذ يستجيب له بدون حاجة الى أن تعقبه الرجـة الكهربية · ثم استخرجت الســماعة من الحوض المائى · وأطلق فيها الصـــوت ، فوجد أن السمك يسمع صـــوت (التليفون) وهو خارج الماء ويستجيب له كما كان وهو تحت الماء ·

ولكن مما تجدر ملاحظته أن السمك لا يسمع الصوت بالطريقة التى نسمعه بها · أى بتموجات الصوت فى الهواء ، فليس له من الأعضاء ما يمكنه من ذلك ، وكل ما يحس به بمقتضى جلده الحساس هو ذبذبة الماء التى يحدثها الصوت ·

ومن ذلك كله ثبت أن الأسماك تميز الأصوات ، على شرط أن يكون لهذه الأصوات أثر فى ذبذبة الماء · وأن التحدث على الشـــاطىء وحركة السير تفزع السمك وتجعله يبتعد عن الطعم · ولكن فى الوقت نفسه ثبت أن هناك أسماكا ، أشهرها بعض أنواع الكارب ، يمكن دعوتها الى الطعام برنين جرس كهربى أو الدق على طبلة ، أى أنها لا تجفل من الأصوات بل تقبل عليها ·

طبائع وعادات

تختلف الأسماك فيما بينها ، خلقا وطبعـــا ومزاجا وسيكولوجية وشخصية كما يختلف الرجال والنساء على وجه الأرض ·

فهناك السمك الشرس ، والسمك الوديع ، والسمك الذى يلوح كان له ثأرا عند جميع المخـــلوقات والسمك الأليف · والسمك السـمين المتراخى الكسول والسمك النشيط الضـــامر المســـتعد دائما · وهناك

السمك المتزن الذى يسير دائما بحساب ، والسمك السريع المستهتر المغامر · والسمك الجرىء والسمك الخجول · والسمك الذى يعيش عيشة نسك وزهد ويقطن الكهوف المظلمة ، والسمك الذى يحب أشعة الشمس وصحبة الجموع · وهناك أخيرا السمك المتوحش الشرير المعارك والسمك العاطفى الرقيق الذى يعبر عن مشاعره باللثم والتقبيل ·

اذا لم تكن مصدقا ذلك فاذهب الى جزائر بهاما أو جزر الهند الغربية أو فلوريدا والبس حلة غواص واهبط بين شعاب المرجان والأسماك · لن يخافك السمك ولن يلاحظ حتى وجودك ، واذا عثرت على قبيلة من الجرنت المخطط ، فمن المؤكد أنك سترى زوجين من الأسماك منعزلين كأنهما عاشقان · وهى مخلوقات رشيقة ذات ألوان صفراء وفضية مخطوطة بالأزرق تتحرك جماعات · ولكن بين الفينة والفينة ينفلت زوج منها فيغادران الجماعة وينتحيان جانبا ، ثم يسير الاثنان جنبا الى جنب الى أن يختفيا بين شعاب المرجان ، ولكن مجرى الحب الصادق لا يسير دائما فى طريق أملس حتى فى عالم الأسماك ، فقد يحدث أحيانا أن يظهر ذكر آخر من هذا السمك يقطع عليهما خلوتهما فتقوم معركة ، اذ يشتبك الذكران من أجل الأنثى ، وهى واقفة تنظر وتنتظر ، حتى تنجلى المعركة عن فرار أحدهما ·

وتختفى الأسماك هروبا من خطر يحيق بها وكثيرا ما نرى فى حجر أو فى كتلة من المرجان الميت السمكة السنجابية تطل فى حرص وجسمها الأحمر فى مأمن بداخل المخدع وعيونها الزرقاء الكبيرة تنظر هنا وهناك للتأكد من عدم وجود خطر قبل أن تخرج سعيا وراء طعامها ، وفيما عدا قبوعها فى الجحر وتيقظها للاختباء عند أول بادرة خطر ، لا يوجد أى تشابه بينها وبين حيوان السنجاب ، ولسنا ندرى لماذا أطلق عليها هذا الاسم ·

ولكنك ستعرف بسرعة سبب تسمية السمكة المسماة « ناظر المدرسة » ، اذا ظهرت احدى هذه الأسماك الرشيقة على المسرح · فهى مخلوق رشيق بظهرها النحاسى المحمر وذيلها الأصفر وبطنها الأبيض الزبدى ، بينما عيونها الذهبية محاطة بهالة خضراء داكنة ، تظهرها كلابس العوينات وتضفى عليها الحكمة والاحترام · وهى تتحرك ببط فى هيئة وقدرة تتفق مع وظيفة الناظر حين تسير خلفه طوابير « مدرسته » ·

وأحيانا تكون جماعته من جنسه نفسه ، يتعلمون على يديه كيف

يصبحون نظار مدارس · واحيانا تتكون المدرسة من ستة أو أكثر من الأنواع ، أو يكون الفصل الذى يسير فى ذيل الأستاذ كله من الجرنت أو السمك الغزال أو أى نوع آخر من السمك · وعلى كل حال تكون فى سيرها أشبه بفوج من السياح يسيرون فى اثر دليل يرشدهم الى الأعلام والمناظر واذا وقف الناظر يقفون ، واذا أخذ ينقب بين الصخور والمرجان فان تلاميذه يحذون حذوه ، واذا رأى خطرا مقبلا عاد القهقهرى ، فينقلب الجمع ويفر هاربا ·

كيف ينام السمك ؟

ولو أن الأسماك لا تستطيع أن تغلق عيونها لأنها ليست لها جفون ولكنها تستطيع أن تنام ، وأن تنام نوما عميقا ·

فمثلا التوتوج أو السمكة السوداء التى تعيش فى سواحل الأطلسى عندما تشعر بالرغبة فى النوم ، تبحث عن بقعة منعزلة فى الصخور المغطاة بالأعشاب البحرية ، وتلقى بأحد جانبيها الى هذا الفراش الناعم وتستعد للنوم ولكنها قبل أن تنام تخلع عنها حلة النهار لترتدى جلباب النوم ، أو أن الطبيعة تفعل ذلك بتغيير اللون اليومى للسمك الى لون مرقش مخطط يتناسق مع ألوان غرفة النوم ، بحيث تصبح السمكة غير منظورة تقريبا لأى عدو يود أن ينتهز غفلتها فى نومها · وهذه السمكة تنام نوما عميقا وتستمتع به حتى ليخيل لنا أنها تكاد تشخر ·

وهناك أسماك ترقد وتنام هى الأخرى ، ولكنها لا تحب الأماكن المظلمة بين الصخور ، وتفضل الماء الجارى · وعندما ترغب فى النوم تتخذ سريرها بين الأعشاب والنباتات البحرية المتموجة ، فتغوص الى أسفلها وتستند الى جذوعها · ولما كان لونها أبيض فضيا ، وقد ترى واقفة بين الأعشاب ، فانها أيضا ترتدى مناعة ذات ألوان متموجة غير منتظمة من الخطوط السوداء والرمادية تتلاءم مع البطانيات المتموجة حولها ·

وسمك الطول أو سمك موسى من النوع العميق النوم . ولكنه لا يحتاج الى تغيير لونه فى وقت النوم ، لأن لونه الطبيعى يتناسق مع قاع البحر سواء أكان رمليا أم طينيا ، وكثيرا ما يغطى نفسه بطبقة ، وعندما يستلقى فى القاع يكون من الصعب معرفة هل هو نائم أو مستيقظ ومن حسن حظه انه لا يتقلب أثناء نومه ، لأنه لو تقلب واستبان جانبه الأبيض ، فانه قد لا يستيقظ بعد ذلك أبدا اذ يكون قد اغتالته سمكة أخرى جائعة ·

والسمكة الببغائية الحمراء والخضراء فى البحار الجنوبية وفى جزر الهند الغربية يمكن ملاحظتها جيدا اذ يكون الماء رائقا فى تلك المناطق · وهكذا السمك ميال للنوم وقد ينام عدة ساعات فى القاع ، واذا رأيته نائما فانك لن تتعرف عليه · فانه فى أثناء يقظته وعومه يكون مكتسيا ثوبه الأخضر الذى يتسق مع مياه البحر الخضراء ، ولكنه عندما يقرر أن ينـام بين المرجان والشقائق البحرية يتخـذ ألوانا صارخة من الأحمر والبرتقالى والأصفر والأسود والسماوى والأخضر فى هيئة بقع وأشرطة ونقط ، وقد تظن أن هذا الرداء الصارخ يجعله بارزا للرؤية ، ولكن هذه الألوان تتسق مع النباتات العدة فى المياه الاستوائية وتبدو وكأنها جزء منهـا ·

والسمك الببغائى هذا لا يكتسى هذه الحلة الزاهية عنـد النوم فقط ، فانه بمجرد خروجه من الماء الرائق وسيره بين الشعب وعند القاع يغير ألوانه فيكون نصفه أزرق ونصفه مرقشا ، بألوان فاقعة ، أو نصفه أخضر ونصفه أحمر بحسب مجموعة الألوان المحيطة ·

وهذه القدرة على تغيير الألوان شائعة بين الأسماك ، وبعض أنواعها تتحول من لون الى لون بسرعة الحرباء · وهى تغير ألوانها لتتخذ ألوانا وقائية · كما أن السمك الببغائى يغير لونه من الأزرق أو الأخضر الى مجمـوعة من الألوان المختلفة للتناسب مع الشعب المرجانية وغيرها ، فكذلك سمكة موسى تتغير بسرعة من اللون الأسـود الى لون قريب من الأبيض لتتناسق مع القاع الرملى أو الطينى الذى تستقر عليه وتتاثر ألوان الأسماك بمقتضى الفصول ومشاعر الانفعال وغير ذلك من الأسباب · فكثير من الأسماك ذات اللون الكالح سرعان ما تصبح ذات ألوان فاقعة اذا غضبت أو عند القتال مع سمكة أخرى أو فى موسم التلقيح ، أو اذا أزعجها شىء ، بينما أسماك أخرى ذات لون فاقع فى العادة تتحول فى الحال الى ألوان كالحة اذا أخيفت أو طوردت · فالسمك ذو الأشواك الظهرية الذى تحدثنا عنه فى فصل آخر ، يكون فى العادة ذا لون فضى وزيتونى فى أكثر أوقات السـنة ولكنه يلبس ملابس العرسان من اللونين الأحمر والبرتقالى عندما يبنى عشه ويحرسه · وعندما يقترب عدو يتأجج لون هذه السمكة أكثر وأكثر وكأنها قد احمر وجهها غضبا وانفعالا ·

وبعض الأسماك تتغير ألوانها ورسومها بتقدم السن ، فتبدو الأسماك الصغيرة فى ألوان تختلف كل الاختلاف عن ألوان السـمك الكبير من نوعها ، حتى ليخيل اليك أنه لا علاقة بينهما ·

وفي الوقت نفسه توجد أسماك أخرى لا تتغير ألوانها تغييرا يذكر مهما تغير الجو أو الانفعالات أو الوسط ، وسواء كانت نائمة أو مستيقظة . ومعظم هذه الأسماك لها من لونها العادى ومن شكلها وقاية لا تحتاج الى تغييرها عند النوم . ومن هـــذه الأسماك السمكة ذات الريشة ، وهى سمكة ملتصق بجسمها ريش عريض على هيئة ورق الشجر ، قد يخيل اليك وهو سائر أن شكله العجيب ليس له أية فائدة خاصة . ولكن اذا لجأت السمكة الى انتجاع الراحة بأن تستقر وتلقى برأسها بين الأعشاب البحرية تصبح عبارة عن ورقة شجر ميتة عالقة فى الأعشاب ، ويكون تكوينها هذا نوعا من التمويه .

وهناك أسماك أخرى تختلف عما تقدم فى أنها تفضل أن تنام على سطح البحر . فالأوبا التى تسمى « ملك الرنجة » ، وهى سمكة كبيرة وفاخرة ، عريضة وسمينة تزن أحيانا من ٣٠٠ الى ٦٠٠ رطل ذات ألوان صارخة توجد فى كل مكان من البحار سواء الدافئة والمعتدلة وحتى فى مياه النرويج ونيوفوندلند شمالا ، الا أنها تعتبر من السمك النادر . هذه السمكة تعوم عادة على مقربة من سطح الماء وظهرها الى أعلى كاية سمكة أخرى ، ولكنها عندما ترغب فى النوم ، تستلقى على جنبها وتنـــام ملء عيونها وتترك نفسها للأمواج .

وأخيرا فهناك أسماك تنام نوما عميقا حتى لتقترب منها وتمســك بها دون أن تستيقظ من نومها ، بل ان هناك سمكة من أسماك جزر الهند الغربية تنام فى الصخور على مقربة من سطح الماء ويبلغ من عمق نومها أنها لا تشـــعر بأى شىء من حولها ، وتمسك وتوضع فى السفن دون أن تستيقظ . حتى اذا ما استيقظت آخر الأمر بدا عليها من الدهشة والذعر ما يجعلها تأتى بحركات مضحكة ، مستيئسة فى سبيل الخلاص على غير جـدوى .

طرائف عن الأسماك

عفاريت البحر فى الحسوم :

يتشاءم الصيادون فى مصر من الخروج الى الصيد فى أيام الحسوم من كل عام ، وهى سبع ليال وثمانية أيام ، اعتقادا منهم أن الشياطين تجـذب الأســـماك وتؤذى الصـــياد ، ودليلهم على ذلك أن الأسماك اذا ما وقعت فى الشبكة لا تلبث أن تأتى بحركات عنيفة وتفلت من الغزل

وتنجو أو تمزق الشباك ، بل ان الصيادين لا يأمنون أيضا على أنفسهم فى قواربهم بالبحر ٠

ويقولون بأن الشياطين يتزوجون من عرائس بالشرق ويرحلون بهن الى الغرب فيحتاجون الى أن يكون البحر خلوا من الانسان ليخلو لهم الجو ، فيصنعون هذه الزوابع الحطرة تغطية لأعراسهم ٠

والواقع أنه فى هذه المدة بالذات يهب الريح من الشرق الى الغرب ، فلا يلائم حالة الصيد ، ثم يتجه بعد ذلك من الغرب الى الشرق ويبدأ الصيد رويدا رويدا ٠

صـيد أنطونيو :

كان مارك أنطونيو مغرما بصيد الأسماك وكان يقضى أوقات الراحة واللهو فى صيدها ، وكانت تشاركه كليوباترا فى هذه الهواية ٠

ومن الحكايات الطريفة التى يتناقلها الرواة على سبيل الفـــكاهة أن أنطونيو كان قد صنع له حوضا كبيرا للأسماك وصيدها ، وكان يتبارى هو وكليوباترا فى وفرة الصيد ، وكان دائما يتغلب عليها ، بأن كان يكلف الغواصين أن يتسللوا سرا الى الحوض ويهبطوا خلسة الى القاع ويمسكوا بالأسماك ويرشقوها فى سنارة أنطونيو ٠ وبذلك يصيد أكثر منهـــا طبعا ٠

وذات يوم كشفت كليوباترا هذه الحيلة ، أو نميت اليها ، فاضمرت فى نفسها أمرا ٠ ودبرت مباراة كبيرة بينها وبين أنطونيو وحضرها عدد كبير من الناس ، ولجأ أنطونيو الى حيلته القديمة ٠ فاذا به يخرج من البحر سمكة مقلية ، بين دهشة أنطونيو المسكين وتضاحك الحاضرين ٠